

من أجل فلسفة عربية للممارسة

سليم رضوان

إن الخطاب الفلسفي الذي تعلمناه ، والذي نقراه ، ليس إلا خطاب العقل أو الوعي المطلق ، ويتعبير آخر فإن هذا الخطاب لا يتجاوز المجال الفلسفي الكلاسيكي : الشمولية الغربية .

ما الذي يمثله هذا الوعي المطلق بالنسبة لنا ؟ لحظة اغتراب الذات ؟ لكن أي ذات ؟ الذات الوحشية التي لم يعد التاريخ قائما بالنسبة لها إلا في الماضي أو في الآخر ، الذات التي لم تنع أنها تعيش مرحلة انحطاط مطلقين : المطلق المقدس والمطلق الغربي : مرحلة الخيانة التاريخية : فعوض الحرية والانسان يتحقق النظام والضرورة ، وعوض المبدأ والمثال يتحقق المطلق عن طريق القوة والاستلاب ، وعوض العقل يتوحد المطلق الغربي العقلاني والمطلق التقليدي المقدس ... وبعبارة واحدة ، فإن الخطاب الفلسفي الذي تحدد من المطلق - الوعي ، عليه أن يعيد صياغة مفاهيمه انطلاقا من وضعيته الجديدة .

كيف يمكننا إذن انتاج وبلورة اشكالية جديدة ؟

يجب أن نحدد أولا المكونات الأساسية للاشكالية التقليدية لفكرنا :

1- تأملية وخارج الممارسة التاريخية الثورية .

2 - عقلانية - ميتافيزيقية ، حيث العقل مطلقا وشموليا ، دون فهم العلاقة بين العقل الذي ليس في نهاية المطاف الا وعيا وبين الممارسة التاريخية والاجتماعية للبشر داخل نظام وعلائق محددة .

3 - التضاد التقليدي بين التقليدية / المعاصرة ، التراث / الحداثة ، القديم / الجديد ، الشرق / الغرب ، دون ادراك وفهم وحدة هذا التناقض .

4 - اتخاذ موقف اغترابي من العقل أو الوعي المطلق الغربي ، اذ ما زال الايمان في شمولية وكونية هذا العقل ، دون الانتباه الى مساره التاريخي للعقلاني ، سلطة القمع ، التحالف الخياني مع فكر وبنيات تقليدية معادية ،

الاستيلا بجل الوعي ، وبعبارة واحدة : فإن هذا المطلق العقلاني الذي كانت وجهته دوما الامام لا تشده في الحاضر سوى حبال من الماضي .

ان باورة اشكالية جديدة تمثل قطيعة حقيقية (كثر الحديث عن مفهوم القطيعة الابستمولوجية ، بأي معنى نفهمها واعتمادا على اي فيلسوف ، في حين ان المهم هو انتاج قطيعة نظرية ، مع اشكالية مطلقة ما زال فكرنا أسيرها والانطلاق نحو بلورة اشكالية جديدة انطلاقا من الوضعية الراهنة للمطلق) ، لا يمكن انجازها الا اذا كانت وجهتها الممارسة الحية للجمامير العربية .

ان الاطار النظري الذي نحدد ضمنه وعينا الفلسفي وسلوكنا ، لا يمكن فصله عن المطلق الغربي الشمولي ولا عن مساره التاريخي : فمن العقل / المبدأ الى العقلانية / الهيمنة ، ومن التاريخ كتحقيق وممارسة للحرية الى التاريخية الايديولوجية ، ومن الديمقراطية كتحول وبثورة الى الحقوقية الشكلية البورجوازية .

- العقل / العقلانية / اللاعقلانية :

ان الحديث عن العقل المطلق ، هو حديث عن العقلانية ، عن نزعة ، عن ايديولوجيا . فالعقل المطلق ، ذاك الذي تجاوز محدداته الموضوعية : الاجتماعية - التاريخية والمعرفية (العقل الديكارتي اللاتاريخي) لا يمكن فهمه الا انطلاقا من فهم المجتمع الرأسمالي الغربي . فباعتباره عقلا غربيا يفهم ذاته عقلا كونيا ، أي ينتقل من مستوى العقل الى مستوى النزعة الايديولوجية ، نزعة تتجاهل التناقض والتاريخية ، فهي لا تعتبر نفسها نتاج نظام ونمط انتاج محددين ضمن التاريخ الغربي بقدر ما تعتبر ذاتها نتاجا كونيا لتاريخ مطلق .

هذا الفهم المطلق للعقلانية ، قاد وبطريقة لا واعية ، الى باورة اشكالية هيمنت مدة طويلة على الفكر العربي ، اشكالية التقنيكية / المعاصرة ، التقايد / التجديد ، التقدم / التخلف ، الخ ... والتي نجد في النسق العقلاني حلها :

- مبادئ العقلانية ، مبادئ ضرورية وحد أدنى حيوي لكل تقدم ونمو .
- الثورة العلمية والتقنية التي حدثت في الغرب ثورة مطلقة قابلة للتطبيق في كل مكان وزمان متجاهلة النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي الذي أدى الى حدوث هذه الثورة .

- هذه النزعة لا ترى في الحضارة الغربية الا بعدا واحدا : علاقة الانسان بالطبيعة (وهي بالضرورة نظرة التقنوقراطية) متجاهلة العلاقات الاجتماعية ، وعندما تهتم هذه النزعة بالعلاقات الاجتماعية فان ذلك يظل دائما في اطار

دورها في التنمية لا باعتبارها أداة ثورية للتغيير المجتمعي . ان هدفها
الايدولوجي ، السوسيولوجي هو نفي الصراع باعتباره ايدولوجيا .

ان النظرة الاقتصادية والسوسيولوجية السطحية لا ترى في العقلانية الا
مجرد مبادي ، مطلقة وشمولية ، جاملة انها مسلسل تاريخي .

لقد اجمل « كارل كوسيك في كتابه » « جدلية الملموس » الخصائص
الجوهرية للعقل الجدلي في مقابل العقل العقلاني :

« 1 - تاريخية العقل بمعارضة لا تاريخية العقل العقلاني . 2 - على
نقيض العقل العقلاني الذي ينتقل من الابطس الى المعقد بدءا من نقط انطلاق
محددة بصفة نهائية باعتبارها محققة للمعرفة البشرية ، يمر العقل الجدلي
من الظواهر الى الجوهر ، من الجزء الى الكل معتبرا تقدم المعرفة عبر مسلسل
جدائي للكليات ، والتي تعتبر مراجعة المبادئ الجوهرية امرا ممكنا . 3 - ليس
العقل الجدلي امكانية للتفكير والمعرفة العقلانية فقط ، ولكنه في نفس الوقت
عملية تكوين عقلاني للواقع ، وبعبارة أخرى تحقيق للحرية . 4 - العقل الجدلي
نفي ، يضع تاريخيا مستويات للمعرفة وتحقيق الحرية الانسانية ، ويتجاوز
نظريا وعمليا كل مستوى تحقق بوضعه داخل الكلية في تطورها ... فهو يفهم
ويحقق جدلية النسبي والمطلق داخل المسلسل التاريخي » (I) .

وان هذا العقل العقلاني يقود كذلك في مساره التاريخي الى اللاعقلانية .
لقد قال لنا مفكرون امثال ماكس فيبر وجورج لوكاتش ورايت ميلزوكارل
كوسيك وغيرهم بان عقلانية المجتمع مرفوعة بانحطاط للعقل ، وان تقدم
العقلانية يؤدي بشكل مواز الى اللاعقلانية : « عند ديكرت ، العقل ، هو
عقل الفرد المنعزل والمنعقد ، الذي لا يجد اليقين لذاته وللعالم الخارجي الا
في وعيه .. نتائج تحقيق هذا العقل المستقل تظهر بانه ليس مستقلا ، ولكنه
خاضع لمتوجاته التي هي في مجموعها غير معقولة ، فالعقلانية أصبحت عقل
المجتمع الرأسمالي المعاصر ، اذ ان عقل المجتمع يتجاوز السلطة وقابليات
الفرد المنعزل حامل العقل الديكرتي » (2) .

فالعلاقة اذن بين العقل والعقلانية لا تعكس الحقيقة المطلقة المجردة
واليقينية بل يجب فهمها انطلاقا من فهم المسلسل التاريخي الذي يقود من
التطابق بين العقل والعقلانية الى تناقضهما ، الى إنتاج هذا الفرد المنعزل
الذي قال عنه رأيت مياز « هذا الانسان العقلاني بدون عقل » (3) .

ـ التاريخانية الايدولوجية :

ان ما نقصده بالتاريخانية الايدولوجية هو الخاصية المطلقة للخطاب
التاريخي ، اذ يتجاوز كل المحددات التاريخية المرحلية والموضوعية ، وبالتالي
فهو تاريخ يتجاوز التاريخ ، يتعالى ثابتا ، ابديا كونيا ومطلقا . ان حامي

أن يحقق وحدة التاريخ والوعي المطلق ، هذا التحقيق خارج الممارسة ، ولذلك نعتبره ايدولوجيا .

هذا الوعي الكلي أو التصور الكلي أو هذه الشمولية المتعالية تستمد قدسيته من الماضي ، أقول من الماضي ، وليس من التاريخ . هذا الماضي الذي نحياه في كل لحظة ، ففي كل لحظة نحيا الماضي ونحييه ، هل هذا الفعل مجرد إعادة و تكرار أم اختلاف ؟ هنا يتدخل التاريخ ، فهو ليس بالنسبة لنا تحقيق للحاضر عن طريق نفي الماضي ، انه استمرارية ما زالت تمثل قيما للفكر والسلوك ، ولذلك فالعلاقة بين الوعي والممارسة ، علاقة يفصل بينها في الحاضر ماضى بأكمله . والمستقبل ؟ انه ليس الآتي ، وليس المستقبل الماضي ، بل هو الحاضر المحقق عن طريق اغتراب الذات في قارة أخرى .

تلك اشكالية التاريخانية المطلقة ، وربما يمكن القول ان تلك ماساتها كذلك .

- ان الخطاب التاريخاني هو خطاب وعي في علاقته مع ذات تاريخية هذا الوعي يعي ذاته باعتباره وعيا ، كليا ، كونيا ومطلقا . وتتحدد علاقته بالذات التاريخية من حيث هي ذات تتجاوز محدقاتها الموضوعية . فمسألة معرفة وتحديد دور هذه الذات وطبيعتها مسألة جوهرية : ذات تاريخية مجردة ومطلقة أم ذات تاريخية ملموسة وجماعية ؟ ذات تاريخية تعتبر ذاتها مجرد وعي فقط أم تحقيق تاريخي : فالجواب عن هذا السؤال هو الذي يفصل بين التاريخية - النقدية والتاريخانية الايدولوجية : الاولى تتجاوز جدلي وثوري ونقدي في النظرية والممارسة عبر مسلسل نضالي تقوده ذات تاريخية جماعية (الحزب الثوري) والثانية اعلاء لشمولية ثابتة وأزلية عبر ذات مطلقة ومجردة خارج الممارسة . هذا ما يفصل كذلك بين الرؤية الميتافيزيقية للوعي والذات والرؤية الجدلية لهما ، بين الوعي الكلي والمطلق والوعي الطبقي الملموس ، بين الذات كنتاج لمسلسل من التناقضات التاريخية وبين الذات الخارقة المتعالية .

كيف امكن للتاريخانية الايدولوجية تجاوز التاريخ كممارسة ثورية ونقله الى مجرد وعي مطلق ؟

- ذلك لان تحديدها لهوية الذات في علاقتها بالآخر تحديد مثالي ، انه علاقة وعي مطلق بوعي مطلق ، فالهوية ليست في اعتبارها مفهوما يتحقق تاريخيا عبر النضال الملموس ضد الطبيعة وفي مواجهة الآخر ، بل مجرد وعي جدد منذ الازل ، يستمد جوهره من مطلق آخر ، في حين يكون الآخر هو ذاك الذي يحاول أو يريد سلب الذات هويتها أي سلبها . وعيها الذي يمثل جوهرها

ووجدتها وكيونتها . هذا الفهم المثالي لملاقة الذات بالآخر يقود الى ادراك خاص للاستيلاء باعتباره واقعة فكرية محضة وليس ممارسة ملموسة . ويتقرب عن ذلك نتائج نظرية هامة لها قيمتها السياسية :

- لا وجود للصراع الطبقي ، وليس هذا الصراع هو المحرك الاساس للتاريخ ، اذ تحل الهوية والجوهر الازلي الابدلي محل الصراع .

- ان هناك مبادئ ابدية ازلية ثابتة يجب على الجميع ، مستغلين ومستغلين ، رجعيين وثوريين ، محافظين وتقدميين ، انجازها والدفاع عنها .

- ان هناك تاريخا واحدا مشتركا ومنسجما وكلنا يجب على الجميع الاعتراف به وتقديسه .

- ان هوية الذات والتاريخ كجوهر والوعي كمطلق يقتضي النضال ضد الآخر أي كل من يحاول بث التفرقة او نقد الهيمنة .

وبعبارة واحدة فان التاريخانية شكل ايديولوجي ميتافيزيقي يفهم التاريخ والهوية والانسان والذات والآخر فهما مجردا ، مطلقا وخارج الصراع والتناقض أي خارج الممارسة .

- الحقوقية البورجوازية :

ان المتتبع لتطور الخطاب الفلسفي يلاحظ ارتباط تحولاته بالتحويلات التي يعرفها المجتمع الرأسمالي . ويمكننا اجمال هذه المراحل على الشكل التالي :

أ - الوجود كمعطى ميتافيزيقي : فلا احد ينكر ان الوجود الميتافيزيقي مثل ولفترة طويلة مفهوما محوريا داخل النسق الفلسفي ، فهو الذي يعطي للفلسفة أو بعبارة أصح للميتافيزيقا بعدها المجرد والمتعالي ، وهو في نفس الوقت الذي يميز بين الافاذ من الرجال القادرين على التصور وبين العامة المرتبطين بالوجود كمعطى حسي .

ب - الوجود التاريخي او كمعطى سياسي : مرحلة البحث عن هوية الخطاب الفلسفي ، عن جذوره التاريخية والاجتماعية والسياسية، هذه المرحلة مثل مفهوم الايديولوجيا محورها الرئيسي .

ج - الوجود كمعطى معرفي او إبستمولوجي : أي التجزيئية العلمية في دراسة وقائع سوسيولوجية أو سيكولوجية ، وهي دراسات تقدم نفسها باسم العلم ، لكنها قمة الايديولوجيا : تمنيت الواقع وتجزئته ، لا تاريخية الظواهر، تبرير النظام الرأسمالي ، نبذ النظرية باعتبارها ايديولوجيا ، وقد عرفت هذه المرحلة قمتها حين اكتشف الخطاب الفلسفي جذوره المنسية في المفاهيم العلمية .

يمكننا أن نتساءل عن مصير الدراسات الاسلامية امام هذه التحولات ،

يمكننا أن نقول بعبارة واحدة ، انها كانت مجرد ميدان تطبيقي ، اذ واكبت هذه التحولات : من الأصالة حيث البحث عن الوجود كجوهر صميمي ، الى العلمية حيث الوجود معطى مفهومى مرورا بالتاريخانية حيث الوجود معطى انساني .

علينا الا نفغل علاقة هذه التحولات التي عرفها الخطاب الفلسفي بغيره من الخطابات الأخرى ، خاصة منها الخطاب السياسي الذي يهدف الى اصفاء الشرعية الحقوقية على الوضع الطبقي والسياسي القائم : احلال البطاقة الانتخابية والديموقراطية البورجوازية محل الصراع الطبقي ورد كل تناقض وصراع الى مجموعة من الاصطلاحات الحقوقية : داخل هذا النسق تزدهر التحاليل الاقتصادية والسيوسولوجية والحقوقية بينما يفقد الخطاب النظري الايديولوجي كل مبررات وجوده ويبدو دوغماطيقيا ومثيرا للسخرية .

وختاما ، ان الخطاب الفلسفي كما نعرفه هو خطاب في عمقه ، في مفاهيمه ، في اسلوبه وفي مراميه خطاب بورجوازي ، فهو ليس فقط خطاب النخبة ولكنه بالإضافة الى ذلك يزدري الملموس ولا يجد في تصرفات الناس سوى مظاهر ، ان كانت لا تثير العدا ، فهي على الاقل مثار اشمئزاز ، الا ان هذا التعالي الموهوم يواجه غيابا مزدوجا على صعيد الممارسة : تخلف بالنسبة للنضال اليومي والثوري للجماهير الكالحة وتبعية مطلقة لايديولوجيات النظام الراسمالي .

مواش :

Karl Kosik : « Dialectique du concret » (1)

P. 68 - 69 Maspéro - Paris 1970

(2) المرجع نفسه ، ص 74

C. Wright Mills : « L'imagination sociologique » (3)

P. 173 - Maspéro 1970

« مواقف »

للحرية ، والابداع ، والتغير

الخير المسؤول : أدونيس

المراسلات : ص. ب. : II3/5139 ، بيروت ، لبنان